الوصايا العشر
للنهوض بعلم النفس في مصر والوطن العربي
رؤية مستقبلية لعالِم راحل

دكتور / صلاح فؤاد محمد مكاوى *

مقدمة :

لو تتبعنا الحضارة المصرية منذ القدم ، لوجدنا الكثير من النابهين والنابغين الذين شاركوا فى وضع لبنات هذه الحضارة العريقة ، وأسهموا كثيراً فى تأسيس قواعدها ، ومن هؤلاء العمالقة الأستاذ الدكتور « **فؤاد أبو حطب** » ، أحد صروح علم النفس فى مصر ، والذى كرمته الدولة بأن منحه « **رئيس الجمهورية** » وسام العلوم والفنون من الطبقة الأول ، كما منح جائزة الدولة التشجيعية عن أحد كتبه القيمة (القدرات العقلية) ، وقد وردت سيرته فى عدد من الموسوعات العالمية وموسوعة الشخصيات المصرية البارزة .

ورغم أن هذا التكريم يعتبر على المستوى العلمى والقومى رفيع المستوى ، إلا أن ما قدمه العالم الجليل من إسهام رصين فى إثراء علم النفس التربوى فى مصر، بل فى العالم العربى كله ، وتقديم الكثير من الأبحاث والكتب ، وإعداد وتنفيذ العديد من المشروعات القومية والعربية ، وإسهاماته أيضاً فى تعميق مفاهيم وأطروحات وأفكار ومقترحات وآراء أفادت البشرية فى مجالات علم النفس المعرفى والتجريبى ، والذى تجاوز بها حد القدرات العقلية ، وأيضاً مجال التقويم النفسى والتربوى ؛ كل هذا يحتاج إلى تكريم وتبجيل يتناسب مع هذا الصرح العلمى الشامخ لهذا العالم، والذى يطلق عليه البعض « عالم التربويين ومربى العلماء » . وهذا التكريم يكون عبارة عن تشكيل لجنة من تلاميذه العلماء ، يقومون بتجميع أبحاث وكتب وترجمات وأفكار وتوصيات هذا العالم الجليل لإخراجها إلى حيز التطبيق ، وبالأحرى تلك المرتبطة بتطوير علم النفس فى مصر والوطن العربى .

* مدرس الصحة النفسية – كلية التربية بالعريش – جامعة قناة السويس .

وقد بذل الدكتور فؤاد أبو حطب كل طاقته لخدمة وطنه وقوميته المصرية والعربية ، حيث تولى منصب الأمين العام لاتحاد الدراسين العرب فى المملكة المتحدة وأيرلندا عام (١٩٦٣م) ، ثم تولى رئاسة الاتحاد عام (١٩٦٤م) ، وقد قام الاتحاد فى هذه الآونة بأنشطة هامة ، سواء أكانت علمية أم وطنية ، حيث دأب الاتحاد على الدفاع عن بعض القضايا القومية التى كانت بارزة حينذاك ، منها قضية فلسطين وقضية الجزائر وقضية عدن وقضايا الخليج ...

ومنذ منتصف الستينات إنشغل الدكتور أبو حطب بقضايا علم النفس بصفة عامة وعلم النفس المعرفى بصفة خاصة، حيث دأب على تنمية وتطوير هذا الميدان بتقديم البحوث والكتابات التى تعنى بهذا المجال ، وأصبح ميدان علم النفس المعرفى من التيارات العلمية التى أخذت وضعها فى بحوث علم النفس فى مصر.

وقدم « أبو حطب » نموذجًا نظريًا للقدرات العقلية ، وذلك من خلال كتابه « القدرات العقلية » الذى صدرعام (١٩٧٣م) ، والذى حصل على جائزة الدولة التشجيعية فور صدوره ، وقد حظى النموذج الذى قدمه العالم الجليل على تقدير العلماء على المستوى القومى والعالمى ،وذلك من خلال مشاركته ببحوث حول هذا النموذج فى المؤتمرات الدولية والعالمية والتى امتدت من المكسيك وحتى استراليا عبر القارات الست.

وقد كلف « عالم التربويين » عام (١٩٩٩م) من قبل رئاسةمجلس الوزراء بتقديم تقرير لتطوير التعليم فى مصر ، وقد تضمن هذا التقرير الكثير من الأطروحات والمقترحات التى تفيد طلابنا فى المراحل التعليمية المختلفة ، هذا بالإضافة إلى مساهمته الفعالة فى الارتقاء بمستوى خريج التعليم الجامعى والعالى فى إطار مفهوم الجودة الكلية لمواجهة تحديات المستقبل ، وأيضاً تقديمه إلى المنظمة العربية للتربية والثقافية والعلوم اتجاهات ونماذج حديثة وتجارب عربية وعالمية فى الإعداد التربوى لعضو هيئة التدريس فى مصر.

ولم يكتفى الدكتور أبو حطب بهذا بل شارك ممثلاً لبلده مصر عام (١٩٩٩م) فى الاجتماع الاستشارى للجان الوطنية العربية لليونسكو ، لمناقشة موضوع اليونسكو فى القرن الحادى والعشرين ، وأيضاً من منطلقاته الأساسية تقديم مقترحات حول تطوير البحث التربوى فى التعليم النظامى ومحو الأمية وتعليم الكبار فى الوطن العربى ، وذلك للمنظمة العربية للتربية والثقافية والعلوم فى تونس.

وقد حظيت فئة غيرالعاديين وبالأحرى الموهوبين باهتمامات « مربى العلماء» حيث قدم تصوراً لوحدة مختصة للكشف عن الموهبة والموهوبين ووسائل العناية

بهم، وذلك بتكليف من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والتى عقدت ببغداد عام (١٩٩٩م) ، وتضمن هذا التصور عدة تساؤلات من أهمها من هم الأطفال الموهوبون ؟ وما هى أهم خصائصهم ؟ ولماذا الاهتمام بهم ؟ .

وقد عرض العالم الجليل أهم الاتجاهات والتجارب العربية والعالمية المعاصرة لاكتشاف الأطفال الموهوبين ، ومدى إمكانية الاستفادة منها نحو وضع تصور لوحدة مختصة للكشف عن هؤلاء الموهوبين ، ومن بين هذه التصورات التعرف مسبقاً على خصائص هذه الفئه والتى من أهمها تمتع الموهوب بخيال غير عادى ، والقدرة على التخييل ، وأيضاً تمتعه بذاكرة قوية ، والميول إلى الوصول بالأشياء إلى الكمال والمستويات العليا ، كما يتمتع الموهوب بالقدرة على صياغة المشكلة وحلها كما يصل مباشرة إلى الحلول النهائية ، ويتصف الموهوب كذلك بميل إلى طرح الكثير من التساؤلات ، وحب استطلاع قوى ، فضلاً على التعلم بشكل أسرع ممن حوله .

ولم يغفل أستاذنا الدكتور أبو حطب فئة المسنين فى مجتمعه، حيث شارك فى المؤتمر الإقليمى العربى لرعاية المسنين عام (٢٠٠٠م) والذى يدور حول « المسنون فى العالم العربى ، الواقع والمأمول فى مطلع ألفية ثالثة» ، وقدم ورقة بحثية حول إبداع المسنين ، وأوصى بأهمية دور المؤسسات الحكومية وغير الحكومية بالاهتمام بقدرات وخبرات المسن الفائقة والاستفادة بها فى تنمية المجتمع بمختلف توجهاته .

إستراتيجية النهوض بعلم النفس في مصر والعالم العربي :

من بين ما نادى به وأكد عليه عالم النفس فؤاد أبو حطب العديد من الوصايا للرقى بعلم النفس فى مصر والعالم العربى ، والتى استعرضها بجرأة وحماس للنهوض بهذا العلم ، حيث أكد على أن الاستراتيجية التى صيغت طوال عقود طويلة إما بشكل صريح أو مضمر هى التغريب Westernization ، وقد استندت هذه الاستراتيجية إلى افتراضين أساسيين هما :

١ – جميع الدول النامية لابد لها – إن أرادت التنمية – أن تمر بجميع عمليات التحديث Modernization التى عاناها الغرب منذ القرن السادس عشر الميلادى.

٢ – جميع الدول النامية لابد لها أن تتعرض للتغيرات الاجتماعية التى تحولها إلى خصائص النموذج الغربى فى التحضر حتى يمكن أن تصل إلى درجة اكتمال النمو .

ويتحدث عالمنا بلا حرج ويقول « لعلنا لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا أن جميع

الدول النامية ، منها أقطار الوطن العربى خبرت هذا النسق من التنمية بدرجات متفاوته ، وكانت أكثر الحالات تطرفاً تركيا ، إلا أن النتائج كانت محبطة إن لم تكن مدمرة ، حيث أعطى أهمية بالغة للتغريب حتى يحقق الوطن التنمية ، إلا أن ماحدث أنه مع مزيد من التغريب إزداد الإعتماد وإزداد التخلف ، وهذه الحلقة المفرغة هى خلاصة التجربة الحضارية لأمة عاشت أكثر من سبعين عاماً تحت ظروف التغريب المنظم والمقصود ، ومع ذلك لم تحقق تنمية تستحق الذكر، وهى نموذج متطرف لحالة الدائرة المفرغة أو الدائرة الخبيثة التى وصفناها فى علاقة التنمية بالتغريب .

ويسترسل عالمنا الراحل فى حديثة عن استراتيجية النهوض بعلم النفس من منظور هذا التاريخ فى أن الفشل فى التنمية مشترك بدرجات متفاوتة فى جميع دول العالم الثالث ، ولهذا السبب فإن صيغة التغريب كنموذج للتنمية كثيراً ما وصفت بأنها مشوهة ومعتمدة ومستوردة ، ومن المدهش حقا أن هذه الخصائص على درجة من الشيوع والانتشار بحيث يمكن إدراكها فى جميع جوانب الحياة فى الدول النامية ، وليس العلم إستثناء من ذلك ، ففى العالم العربى مثلاً كثيراً ما يوصف العلم بأنه نشاط هامشى ومغترب وغير نافع .

ويذهب الدكتور أبو حطب إلى أنه فى ظل الظروف غير الملائمة السابقة تمت زراعة وتقديم العلوم الإجتماعية والإنسانية عامة وعلم النفس خاصة إلى الدول النامية ، وقد حدث ذلك فى فترة مبكرة حين كانت أقطار هذا العالم تحت الحكم الاستعمارى ، ولهذا تجاهل التقديم المبكر للعلم كثيراً من الحقائق الثقافية ، لعل أهمها أن هذه الأمم لها تاريخ طويل فى الحضارة الإنسانية والفكر الإنسانى ، ومنه المفاهيم السيكولوجية .

وأنه لمن المهين حقًا لأى متخصص فى علم النفس فى الوطن العربى أن يقرأ فى المؤلفات المتخصصة فى تاريخ علم النفس أن البداية دائماً مع مفكرى الإغريق، وبذلك يتم إهمال الإسهامات العظمى التى قدمتها جميع الحضارات السابقة على الإغريق فى مجالات الطب والفلسفة والتربية والتى تضمنت بذور الفكر السيكولوجى، ومن هذه الحضارات ما ينتمى بأصوله إلى الأرض التى يعيش عليها العرب .

وهناك مصدر آخر للإهانة أشد خطراً وأعظم أثراً يشعر به العربى المتخصص فى علم النفس وهو تجاهل مؤرخى علم النفس – شأنهم فى ذلك شأن مؤرخى العلم عامة – لإسهام الحضارة الإسلامية ، بل استخدم بعض مؤرخى الغرب فى تأريخهم للعلم أطراً نظرية متوهمة يسعون بها إلى عبور الهوة بين العصر « الذهبى » للعلم عند

اليونان ، وعصره « الذهبى » الجديد فى عصر النهضة ، وأشهر المفاهيم التى استخدمت فى هذا السياق مفهوم « الثورة العلمية » ليتجاوز به « العصر الذهبى » التى تعرفه حضاراتنا للعلم خلال الفترة بين القرنين الثانى والتاسع الهجريين (أى الثامن والخامس عشر الميلاديين) .

وقد أدى هذا التجاهل المقصود والمنظم للتفكير العلمى عند المسلمين إلى صور متعددة من تشويه تاريخ العلم عامة - وتاريخ علم النفس خاصة - حيث كتب التاريخ من وجهة نظر الغرب متحيزاً ومجزوءاً ، ثم أشاع هذا الاتجاه مجموعة من « المسلمات » أثرت فى الفكر المعاصر تأثيراً بالغًا ، وامتد هذا الأثر إلى العلماء العرب والمسلمين المعاصرين أنفسهم .

وعلى الرغم من أن هذه المسلمات جميعًا يمكن دحضها وإثبات خطئها وبطلانها من خلال قراءة فاحصة متأنية لتراث العرب العلمى ، إلا أنها رسخت بفعل التكرار و الاستمرار إلى حد اقتناع جمهرة العلماء العرب والمسلمين أنفسهم، فنقلوها أوتوماتيكياً ضمن ما ينقلون عن الغرب ، أضف إلى ذلك ما لوحظ أن تاريخ العلوم لم يكن أبداً ضمن مشروع التاريخ الحضارى للعلم ، وإنما أصبح ضمن مجال الدراسات الاستشرافية وفى حدود الأدوار التى قام بها المستشرقون فى تاريخ العرب الحديث .

وبالرغم من وضع هذه الحقائق فى الاعتبار ثم تقديم علم النفس الحديث إلى العالم العربى ، إلا أنه ظل كالمرآة التى تعكس ما يقع عليها من صور المدارس والاتجاهات لعلم النفس فى الغرب ، ونكاد نقول - بدون تجاوز - أن جميع هذه المدارس والاتجاهات لها ممثلوها فى ثقافتنا العربية الحديثة كالتحليل النفسى والفينومينولوجيا والوجودية والسلوكية ، ثم علم النفس المعرفى وتجهيز المعلومات وأخيراً علم النفس الإنسانى ، والبعض من علماء النفس العرب حاولوا بناء نماذج نظرية فى هذا التيار ، إلا أن ما يلاحظ على هذه الجهود إنها كانت محض محاكاه وتقليد ، ولم يكن علم النفس وحده فى هذا المأزق ، بل يكاد يكون مأزق العلوم الإنسانية والاجتماعية جميعاً .

ويحدد الدكتور أبو حطب معالم أزمة علم النفس فى مصر ، بل فى الوطن العربى فى عدة نقاط وهى :

١ - علاقة الاستيراد - التصدير مع علم النفس فى الغرب :

حيث يصدق تماماً هذا الوصف فى تشخيص أزمة علم النفس فى معظم أقطار العالم الثالث ومنه الوطن العربى ، وعلى الرغم من أن الاستيراد له قواعده وأصوله التى تعتمد أساسًا على حاجات المستورد ، إلا أن ماحدث بالنسبة للدول النامية

(ومنها الوطن العربى) أن عملية الاستيراد صاحبها منذ التعامل مع الغرب الصناعى الحديث خلل شديد ، لعل من أهم مظاهرها أن علاقة الاستيراد – التصدير هى علاقة من طرف واحد ، فدائماً الغرب هو المصدر ، والدول النامية هى المستوردة ، يصدق ذلك على الأفكار والمفاهيم صدقه على التكنولوجيا والسلع .

ولم تحدد الدول النامية باعتبارها المستورد لسلع وأفكار الغرب حاجاتها الاستيرادية ، وإنما الذى حدد ذلك دائماً آليات السوق العالمى ، وأيضاً يحدد الغرب نوع ومقدار ما يصدر لهذا العالم النامى بصرف النظر عن مدى استعداده لهضم المستورد واستيعابه أو إعادة إنتاجه ، حيث عجزت عن استيعاب التكنولوجيا الغربية المستوردة بسبب عجزها عن تهيئة قاعدة إنتاجية تقوم عليها ، وكان عجزها أشد بالنسبة لاستيعاب المفاهيم والأفكار المستوردة لعدم تهيئة قاعدة عقلية ومعرفية تستند إليها .

٢ – التبعية المعرفية :

حيث أن من الملاحظ على علم النفس فى العالم النامى ، ومنه الوطن العربى، لا يكاد يخرج عن نطاق نتائج البحوث والافتراضات والنماذج والنظريات ومناهج البحث وأدواته التى استوردها من الغرب ، بل يصل الحد فى التبعية إلى درجة التهليل لبعض مما يزال موضع شك ومناقشة ، وأخذ ورد فى موطنه الأصلى، ويمكن تحليل خصائص التبعية المعرفية إلى المكونات الآتية :

أ – التبعية تعنى وجود غالب ومغلوب ، وحسب قانون محاكاة الثقافة المغلوبة للثقافة الغالبة ، فإن أخطر ما يترتب عليها انشغال دول العالم النامى بقضايا ثقافة الغرب حتى ولو لم يكن لها أدنى اتصال بمشكلاتنا الواقعية .

ب – التبعية تؤثر تأثيراً سلبيًا فى الثقافة المغلوبة ، ولعل أخطر هذه الآثار السلبية تحقير الذات والشعور بالنقص والمبالغة فى تقدير قوة ومكانة الثقافة الغالبة والشعور المتزايد بضعف الثقة بالنفس .

ج – التبعية قد تؤدى إلى نوع من التوحد مع الثقافة الغالبة ، وهذا التوحد لا يتمثل فى الاعتماد على ما انتجته هذه الثقافة من أفكار ومفاهيم ونظريات ، وإنما قد يمتد إلى القيم التى توجه السلوك واللغة التى يتوصل إليها الناس ، وطرق التفكير التى يمارسها الباحثون ، وطرق تعبيرهم عن هذه الأفكار.

د – تؤثر التبعية المعرفية على البنية الأساسية لثقافة المجتمع، ومن ذلك تدهور استعمال اللغة القومية وزيادة التركيز على لغة أجنبية ، واعتبارها لغة العلم

والثقافة ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك الصراع حول لغة تدريس الطب ، ، بل يمتد هذا الأثر ليشمل القيم العلمية ، وإنتشار الجهل بالتراث المعرفى للأمة .

هـ – التبعية أدت إلى أن ننقل من التراث العالمى بعض الأفكار التى لا قيمة لها ، وربما يكون ذلك نتاج آليات السوق فى الفكر ، كما هو الحال فى الاقتصاد ، فلعلنا لم ننسى أن بعض أسواق العالم الثالث تمتلىء بالسلع الكمالية ، أما الضرورات فهى دائماً فى حالة عوز ، والهدف من وراء ذلك أن ننشغل بالتافه من المفاهيم والأفكار وما تحمله أحياناً من بعض البريق تكريساً للتخلف.

٣ – قطع الصلة بتراث الأمة :

حيث معظم علماء النفس فى دول العالم النامى ، ومنه العالم العربى ، لا يكادون يعرفون تراث أمتهم فى علم النفس ، بل أن بعضهم يعتبر هذا التراث معوقاً للتقدم ، ويمكن تفسير هذا الموقف للأسباب التالية :

أ – بناء الهوية العلمية والمهنية على أساس دراسة وتدريس وبحث وممارسة علم النفس بصورته الراهنة كما صنعها وطورها الغرب .

ب – إدراك علم النفس الحديث على أنه نتاج الغرب المتقدم حضارياً وثقافياً ، والتفوق الحضارى – عند هؤلاء – لابد أن يكون شاملاً لمختلف جوانب الحياة ومنها العلم .

جـ – الاعتقاد بأن التفوق الحضارى الغربى فى مجال العلوم الطبيعية والبيولوجية وفى الاختراعات التكنولوجية صاحبة بالضرورة تقدم فى العلوم الإنسانية والاجتماعية ومنها علم النفس ،

د – إدراك العلم – سواء أكان طبيعياً أم اجتماعياً إنسانياً – بأنه ذو طبيعة محايدة ثقافياً ، وبالتالى يمكن الاستفادة من التقدم الحضارى للغرب باستيراد صفقة العلم كاملة منه .

٤ – عدم الارتباط بالواقع الثقافى الاجتماعى :

ويتحقق ذلك على كثير مما تناوله الباحثون السيكولوجيون فى العالم النامى بمحك الارتباط بالواقع الثقافى الذى يعشه أبناء هذه المجتمعات لانكاد نجد إلا أدنى صلة ارتباط به – والحديث مازال للدكتور أبو حطب – وقد أفرز ذلك عدة ظواهر منها :

أ – يفتقر عدد كبير من الموضوعات التى درست والمشكلات التى بحثت إلى عنصر المعاصرة ، فأغلبيته من النوع التقليدى الذى تجاوزه التفكير السيكولوجى فى

الغرب ذاته ، وحسبنا الإشارة إلى كم البحوث التى أجريت ولاتزال حول نظريات العلم والشخصية الكلاسيكية ، وليس المبرر فى هذه الحالة بالطبع هو الارتباط بحاجات البحث العلمى ، سواء فى الماضى أو الحاضر ، وإنما المبرر الأقوى هوالاستسهال والنمطية .

ب - الوقوع فى شرك الصراعات والتقاليع والموضات العلمية ، فبعض المفاهيم السيكولوجية لا يكاد يظهر فى الغرب حتى تجد البعض يستقبله بحرارة زائدة ثم يشيعه ، وسرعان ما تدور فى فلكه عشرات البحوث المتكررة الرتيبة ، وقد يكون مفهوم الإبداع والابتكار مثلاً كلاسيكياً ، وقد يكون مفهوم الاعتماد - الاستقلال عن المجال (كأسلوب معرفى) وموضع الضبط أوالتحكم مثالين معاصرين ، وفى معظم الأحوال استخدمت المفاهيم دون إدراك جاد لعلاقتها بالواقع الثقافى والاجتماعى العربى .

جـ - تجاهل القضايا الرئيسية والهامة فى حياة المجتمع العربى سواء فى ماضيه أو حاضره ، ولعلى أكتفى بالإشارة إلى مثال واحد فى عدم نضج علم النفس السياسى فى بلادنا ، على الرغم من كل الأزمات والصراعات السياسية التى عاناها ولا يزال يعانيها الوطن العربى ، فقد وقفنا متفرجين تقريباً أمام الصراع العربى الإسرائيلى ، وفى زمن الاستقطاب لم نقدم نماذج سيكولوجية عربية لصراع القوى العظمى ، والسؤال الآن : ماذا نحن فاعلون فى ظل النظام العالمى الجديد ؟

٥ - كف التفكير الإبداعى فى مجال علم النفس :

ولعل أخطر النتائج التى ترتبت عن العوامل السابقة تعويق التفكير الإبداعى فى مجال علم النفس بل وكفه ، وأى متفحص لكثير مما يطبع وينشر من كتب ومؤلفات وبحوث فى علم النفس يستطيع أن يكتشف هذه الحقيقة بسهولة نادرة ، فكثير من رسائل الماجستير والدكتوراه ليست فى جوهرها إلا محض استعارة لبحوث أجنبية ، أو محض تطبيق لأدوات غربية على عينات من العرب ، بل وحين يحدث ذلك فالأغلب هو اختيار طلاب المدارس والجامعات كمفحوصين دون سواهم من أبناء الوطن الواحد ، ويأتى فى المرتبة التالية عينات العمال ، أما الفلاحون العرب وكذلك البدو فلم يحظوا باهتمام يذكر من علماء النفس ، وربما لهذا السبب لم يظهر فرع لعلم النفس الريفى أو البدوى ، كما حدث لعلم الاجتماع.

٦ - فقدان الهوية المهنية والثقافية وسوء استخدام علم النفس :

فقد اتسم علم النفس فى العالم النامى بأنه مغترب عن ثقافته الوطنية ، وقد عزز ذلك مشاعر علماء النفس فى هذه الأقطار بأنهم تعوزهم هوية واضحة ، ومن الملفت للنظر حقاً أنه بعد سنوات طويلة من البحث والممارسة فى هذه البلدان لعلم النفس لا يزال الخلط واضحاً بين علم النفس وغيره من المعارف ، وبين الخدمات النفسية وغيرها من الممارسات ، وأشهر ألوان الخلط فى عصرنا ما بين علم النفس من ناحية وبين الطب النفسى والخدمة الاجتماعية من جهة أخرى .

والبحث عن هوية لعلم النفس قد يحله ظاهرياً إنشاء مؤسسات لعلم النفس ، ومنها النقابات والجمعيات ،إلا أن الحل الجذرى لهذه المشكلة لن يكون إلا باستجابة علماء النفس العرب للحاجات الملحة لأوطانهم ومواطنيهم ، ابتداء من صناع السياسة ومتخذى القرار، ومروراً بجهاز الإعلام والتدريب والتربية ، وانتهاء بالفرد العادى فى حياته اليومية وسلوكه المعتاد ، ثم أن يحفر له جذوراً حقيقية فى تربة ثقافية .

وعلى الرغم من أن علم النفس عندما قدم إلى العالم النامى أمكن استثماره فى خدمة هذه الأقطار فى مجالات التربية والصناعة والعلاج النفسى (الصحى) وغيرها ، إلا أنه بعد فترة أسئ استعماله ، فالأطباء النفسيون بتدريبهم المبتسر فى علم النفس كثيراً ما يصفون أنفسهم بأنهم من علماء النفس ، وقد أسهم فى تعقيد الصورة بعض علماء النفس أنفسهم حين يستخدمون أدوات بحثية (كالاختبارات النفسية) فى اتخاذ قرارات عملية دون أن تتوافر فيها الحدود السيكومترية الدنيا اللازمة ، ناهيك عن ذلك كله إلى تكوين صورة مشوهة من علم النفس لدى جمهرة العامة ، وخاصة المثقفين على حدى سواء.

وقد وضع العالم الجليل الدكتور فؤاد أبو حطب بعض الأطروحات التى من شأنها تطوير علم النفس . وذلك بالتغلب على المشكلات والتحديات التى يواجهها هذا العلم فى مصر والعالم العربى وهى :

١ - تحرير علم النفس :

الشرط الأول لتطوير علم ا لنفس فى وطننا العربى هو تحرير مفهوم التنمية ، كما هو شائع منذ زمن بعيد من نماذج التحديث التى تتطلب عمليات التغريب ، وهذا التحرير ليس هدفاً فى ذاته وإنما هو فى قلب السؤال الجوهرى ما هى التنمية ؟

فقد يفيدنا ونحن نتحدث فى سياق علم النفس أن نسترشد بمبادئ تنمية الفرد لوجود قدر كبير من التشابه بينها وبين تنمية الجماعات والمجتمعات ، والتى تتلخص فى ثلاثة جوانب :

أ – مقابلة الحاجات الأساسية لدى الفرد أو الجماعة مع التحول إلى الاعتماد على الذات مستفيداً من خبرات الآخرين لإشباع هذه الحاجات .

ب – تيسير وتعميق عمليات المواءمة والعلاقات مع الآخرين على أساس التفاعل المتبادل .

ج – البحث عن وسائل التعبير عن الذات تعين على تحديد شخصية واضحة، وعلى تحمل المسئولية ، وتنمية الإمكانات الذاتية ، والوصول إلى الاستقلال .

وقد تنبهت منظمة اليونسكو منذ فترة إلى هذه الجوانب الرئيسية للتنمية ، وصاغت برنامجها الشهير حول تبادل المعلومات لتحقيق التنمية المعتمدة على الذات Endogenous Development ، وتقوم هذه الفكرة الأساسية على افتراض أنه إذا كانت التنمية تسعى إلى إطلاق طاقات الإبداع فى كل مجال وفى كل أمة من الأمم فإن ذلك يتنافى مع القولبة والتعليب ، ومعنى ذلك أن لكل ثقافه الحق فى أن تحافظ على شخصيتها المستقلة ، وأن تستثمر طاقاتها وإمكاناتها ، وأن توظف كل ما هو متاح لها لتحقق أهدافها القومية ، ومنه المعلومات التى يتم تبادلها مع الثقافات الأخرى ، وبذلك يمكن للتنمية أن تحقق طموحات وتوقعات وآمال شعوب العالم الثالث ، وبذلك أيضاً سقطت نهائياً فكرة التنميط على نسق نموذج خارجى ، وحلت محلها فكرة النموذج الخاص الذى تحدده الثقافة فى ضوء أهدافها ووسائلها التى تختارها ، وفى هذا السياق يصبح تبادل المعرفة بين الثقافات أحد مصادر قوة شعوب العالم الثالث، وهنا تلعب العلوم الاجتماعية والإنسانية ومنها علم النفس دورها البارز فى تحقيق هذا النمط من التنمية المعتمد على الذات ، بشرط أن تتوافر فيها نفسها هذه الخاصية ، ويكون المبدأ السائد فى علاقة علم النفس فى الوطن العربى بعلم النفس فى الغرب علاقة تبادل Exchange وليس علاقة نقل Transfer على النحو السائد فى علاقة الاستيراد – التصدير .

٢ – التفاعل بين التراث القومى والحاجات المعاصرة :

يثير مفهوم « التنمية المعتمدة على الذات » مسألة التراث على نحو مباشر، وهى المسألة التى انقسمت إزاءها مواقف معظم مثقفى العالم الثالث إلى موقفين

متضادين : رفض التراث لعدم مواءمته مع حاجات العصر، أو قبول التراث دون تمييز ، ففيه كل الإجابات على تساؤلات العصر ، وقد ظهر هذان الاتجاهان فى علم النفس كما ظهرا فى غيره من العلوم الإنسانية والاجتماعية .

وأهم ما يفيدنا لوضع استراتيجية تنمية لعلم النفس فى الوطن العربى أن نعتمد على ما نسميه الإبداع بين تراثنا القومى ، والحاجات المعاصرة ، وقد تفيدنا حينئذ التجربة التاريخية للعلم العربى فى أزهى عصوره ، وهى الفترة التى تمتد بين القرنين الثانى والتاسع الهجريين (أى الثامن والخامس عشر الميلاديين) وهى فترة العلم العربى ، حيث كانت المراكز العلمية الأساسية فى الحضارة الإسلامية تتكلم العربية .

٣ - الحث على تنمية الفكر السيكولوجى الإبداعى :

هناك سمات للعلم العربى كما ظهر ومورس خلال فترة الأزدهار للحضارة العربية والإسلامية ، وظلت كذلك حتى تدهورت حين أصبح النشاط العلمى يحتل مكاناً هامشياً ، وخاصة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وهى السمات التى افتقدناها مع دخول العلم الأوربى فى كثير من البلدان العربية والإسلامية منذ نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ، فقد اتسم بخصائص التبعية المهلكة .

ويتناول الدكتور أبو حطب عدة تساؤلات هامة هى : كيف الخروج من التبعية إلى الابتكارية ومن التقليد إلى التجديد ومن الاتباع إلى الإبداع ؟

وهناك سبل عديدة يمكن تلخيصها من أجل الإجابة على هذه التساؤلات وذلك كما يلى :

أ - الاستفادة من دروس التاريخ « درس الحضارة العربية الإسلامية من ناحية ، ودرس الحضارة الأوربية من ناحية أخرى » فى التبادل المعرفى القائم على احترام الآخر وتقدير الذات ، واعتبار تراث الحضارات كلها تراثاً للإنسانية .

ب - البحث عن حلول علمية جديدة للمشكلات التى تثيرها الممارسات الاجتماعية فى الثقافة العربية بجوانبها المادية وغير المادية .

ج - توفير الوسائل لخلق الوسط العلمى الصحى والصحيح فى الوطن العربى من خلال مؤسسات حقيقية على نمط بيوت الحكمة فى بغداد والقاهرة والتى انتقلت فكرتها إلى ما سمى الأكاديميات العلمية فى انجلترا وفرنسا فى القرن السابع عشر .

د – إعادة النظر فى نشاط الترجمة فى الوطن العربى ، ومرة أخرى يفيدنا تاريخ العلم العربى ، لقد ارتبطت حركة الترجمة فى تاريخ العلم العربى بالبحث العلمى الإبداعى ذاته ، حيث أن الهدف من الترجمة فى عصر الازدهار الحضارى العربى لم يكن إنشاء مكتبه عربية ، أو إثراء خزائن الخلفاء والأمراء بالكتب ، وإنما لتلبية حاجات البحث العلمى نفسه .

هـ – نمو الإبداع فى علم النفس لا ينعزل عن نموالإبداع فى المجالات الأخرى ، وبخاصة فى العلوم اللغوية ، ويتطلب ذلك خلق اللغة العلمية وتطويرها .

و – تنمية اتجاه نقدى لتراث علم النفس الغربى من ناحية ، ولما تم انتاجه من علم النفس فى الوطن العربى طوال الحقبة الماضية من ناحية أخرى ، سعيًا للإصلاح النظرى والإصلاح المنهجى للبحوث النفسية التى يجريها علماء النفس العرب فى الوقت الحاضر.

ز – تنمية استراتيجيات بحث جديدة للثقافة العربية تشمل الافتراضات والنماذج والنظريات ومناهج البحث وأدواته ، ومنها الاختبارات النفسية .

٤ – البحث عن هوية مهنية جديدة لعلم النفس :

يعرف مكتب العمل الدولى فى التصنيف الدولى للمهن الذى أعده عام (١٩٦٩) ولا يزال معتمداً حتى الآن الأخصائى النفسى كما يلى :

الأخصائى النفسى هو الدارس للسلوك الإنسانى والعمليات العقلية ، كما أنه الباحث فى المشكلات النفسية والذى يوصى بعلاجها فى مجالات الطب والتربية والصناعة ، وهو المخطط والمنفذ للتجارب والملاحظات التى يجريها على البشر والحيوانات لقياس الخصائص العقلية والجسمية ، وهو المحلل لأثر الوراثة والبيئة وغيرهما من العوامل التى تؤثر فى فكر الإنسان وسلوكه ، وهو الممارس لعمليات التشخيص والعلاج والوقاية من الاضطرابات الانفعالية ومشكلات سوء التوافق مع البيئة الاجتماعية والمهنية ، وهو المعد والمستخدم للاختبارات التى تقيس الذكاء والقدرات والاستعدادات والاتجاهات وغيرها من الخصائص الإنسانية ، وهو المفسر للبيانات التى تم الحصول عليها وفى ضوئها يقترح التوصيات العلمية المناسبة.

وعلى الرغم من ملاءمة هذا التعريف للمجتمعات الغربية المتقدمة ، إلا أنه لم يكن ملائما بدرجة كافية لأقطار العالم الثالث ، فالقضية المحورية التى تجاهلها هذا التعريف هو دور الأخصائى النفسى كمحلل ودارس للتغير الاجتماعى وكوسيط فى

حل مشكلات التنمية القومية ، ولعل هذا الدور المهنى المحدد هو السبب فى خلطه بالأدوار المهنية الأخرى وفقدان هويته المهنية .

ويبدو لنا أن علم النفس فى الوطن العربى مطالب الآن أكثر من أى وقت مضى بالاهتمام بإعادة توجيه نفسه بحيث تحتل العمليات النفسية الاجتماعية مكانة بارزة فى بحوثه وممارساته مع مزيد من الغوص فى تعقيدات المشكلات الاجتماعية والثقافية ، حتى يحقق هذا العلم طموحات أبناء الأمة فيه.

خلاصة وتعقيب :

تناول العالم الراحل الدكتور أبو حطب خلال الأطروحة السابقة والتى تحاول الإجابة على سؤال رئيسى هو: مستقبل علم النفس فى مصر والوطن العربى فى ظل المناخ والظروف والمشكلات الحالية ؟

وقد خُلص العالم الجليل إلى عدة حقائق من أهمها الاعتماد على الجهد المنظم والمقصود لإعادة النظر فى مفهوم تنمية العالم الثالث لنصبح أكثر إعتماداً على الذات، فالاعتماد والتبعية فى العلم لهما آثارهما المدمرة ، شأنهما فى ذلك شأن إعتمادية الأفراد فى المجتمعات ، كذلك نحن فى حاجة إلى التحليل الثقافى الأصيل والتركيب الإبداعى الحكيم، وأيضاً لابد أن نعى خطر آخر متوقعاً ، وهو الإندماج الإنفعالى والوجدانى فى الثقافة الوطنية إلى حد تصبح هذه الثقافة هى محكنا الوحيد لإدراك قضايا الحاضر والمستقبل .

والشكل التالى يوضح تشخيص الدكتور أبو حطب لأزمة علم النفس فى مصر، والمتمثل فى علاقة الإستيراد – التصدير لعلم النفس فى الغرب ، والتبعية المعرفية ، وقطع الصلة بتراث الأمة ، وعدم الإرتباط بالواقع الثقافى الاجتماعى ، وكف التفكير الإبداعى فى مجال علم النفس ، وفقدان الهوية المهنية وسوء استخدام علم النفس ، وأيضاً إستراتيجية تطوير علم النفس فى مصر والعالم العربى والمتمثل فى تحرير علم النفس ، والتفاعل بين التراث القومى والحاجات المعاصرة ، والحث على تنمية الفكر السيكولوجى الإبداعى ، والبحث عن هوية مهنية جديدة لعلم النفس.

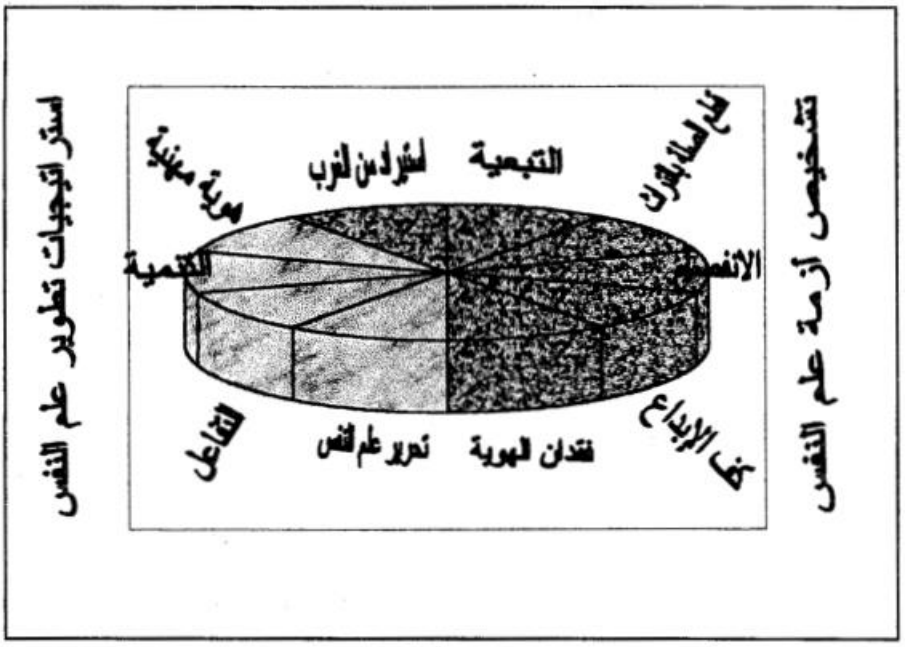

شكل رقم (١)
يوضح تشخيص أزمة علم النفس
واستراتيجيات تطوير علم النفس فى مصر والعالم العربى
للدكتور فؤاد أبو حطب

وأننى أزعم أن هذه النقاط التى تناولها الدكتور أبو حطب لو تم تناولها بمنظور الجدية والتطبيق ، فإن علم النفس فى مصر بل فى العالم العربى سوف يأخذ مكانته بين بقية دول العالم ، وبالإحرى الغرب ، وهذا ينسحب على بقية العلوم الإنسانية والإجتماعية ، لكن هناك بعض المعوقات التى قد تحول دون تحقيق ذلك ، وبالتعرف عليها ومحاولة التصدى لها فإنه وبأطروحة الدكتور أبو حطب سوف نحقق مآربنا بالرقى بهذا العلم ، **ويمكن سردها فى النقاط التالية :**

أ - يبذل الكثير من الباحثين والدارسين لعلم النفس وافر الجهد من أجل إجراء البحوث التى تتناول المشكلات النفسية والتعليمية والتربوية ، وذلك بتصميم بعض البرامج والأدوات ، والحصول على تأصيلات نظرية لا بأس بها ، والخروج بنتائج طيبة وتوصيات سديدة فى نهاية أبحاثهم . إلا أن هذه الدراسات والبحوث لا يصيبها التطبيق، وتصير فى ذمة الوأد ، فأصبح علم النفس الذى نتناوله مجرد تأصيلات نظرية لبعض الأفكار والخبرات

والاتجاهات ، وأصبح هناك جدل حول هذا العلم ، وتنوعت النظريات والمدراس والتى غالباً ما توجه الانتقادات لبعضها البعض ، وإظهار محاسن الإتجاهات والنظريات لكل مدرسة ، وعيوب ومساوئ المدارس الأخرى ، كل هذا يقلل بل يقتل روح المبادأة والابتكار والبحث داخل شباب الباحثين ، وإن هموا لعمل بحث أو دراسة ؛ فيكون السبب هوالحصول على درجة علمية ، دون الإهتمام بقضايا المجتمع المختلفة ومشكلات الأجيال الواقعية على مر العصور.

ب – هناك مشكلة تسمى أزمة إنقسام وعدم وحدة علم النفس Crisis of Disunity ، أو ما تسمى بالتشرذم المتزايد فى علم النفس ، حيث يوجد كم هائل من النظريات النفسية ، ونتائج متراكمة تنتمى إلى مدارس متعارضة إلى حد إنكار بعضها لوجود الآخر ، هذا الشتات يحتاج لبذل جهد من أجل تحقيق الوحدة بين أواصر هذا العلم .

جـ – مصر لديها علماء شوامخ فى جميع المجالات ، وبالأحرى علم النفس، فعلى هؤلاء الشيوخ بخبراتهم وفكرهم السديد تحديد القضايا القومية فى هذا المجال، والتى من شأنها حل الكثير من المشاكل النفسية والسلوكية للأجيال الحالية، بل الأجيال القادمة ، وتوجيه الباحثين للخوض فيها ، وتوجيههم إلى الطرق المناسبة للإستفادة من هذه البحوث فى مجال التطبيق .

ولا يبقى غير الدعاء للعالم الجليل الدكتور فؤاد أبو حطب بالرحمة والمغفرة، ونحسبه عند الله من الصديقين ، وعزاؤنا فى فقده أنه مع الخالدين لما قدمه لأبناء وطنه من علم ونهج نسير على دربه.

وصدق رب العزة فى قوله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم . تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم . دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام . وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾

صدق الله العظيم